

الإسلام ونظافة البيئة وانزائها

أ.د بركات محمد مراد(*)



البشرية ابتغاء مرضاة الله ورحمته في الدنيا والآخرة .

وأهم ما يميز المنهج الإسلامي في الحفاظ على البيئة هو الأمر بالتوسط والاعتدال في كل تصرفات الإنسان باعتباره من أهم عوامل الخلل والاضطراب في منظومة التوازن البيئي المحكم الذي وهبه الله - سبحانه وتعالى - للحياة والأحياء في هذا الكون، ولقد أقام الإسلام بناءه كله على الوسطية والتوازن والاعتدال والقصد، وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، كما نهى عن الإسراف في مواضع كثيرة من القرآن الكريم، فقال تعالى: ﴿وَكُلُوا

(أ) مبادئ وأسس :

سبق الدين الإسلامي الخفيف إلى وضع تشريعات محكمة لرعاية البيئة وحمايتها من آفات التلوث والفساد، ورسم المنهج الإسلامي حدود هذه التشريعات على أساس الالتزام بمبادئ أساسيين يحددان مسئولية الإنسان حيال البيئة التي يعيش فيها .

أما المبدأ الأول فهو «درء المفسد» حتى لا تقع بالبلاد وبالعباد، وتسبب الأذى للفرد والمجتمع والبيئة حيث لا ضرر بالنفس ولا ضرار بالغير .

وأما المبدأ الثاني فهو «جلب المصالح» وبذل كل الجهود التي من شأنها تحقيق الخير والمنفعة للجماعة

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية، قسم الفلسفة والاجتماع، كلية التربية - جامعة عين شمس.

وَأَشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْمُسْرِفِينَ [الأعراف: ٣١]، كما قال
تعالى: ﴿كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَءَاتُوا
حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا
يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ [الأنعام: ١٤١]، بل
إن الإسلام دعا إلى الاعتدال حتى في
الإنفاق، فقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا
أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ
بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا [الفرقان: ٦٧].

وفي السنة النبوية المطهرة أيضاً نهى
رسول الله ﷺ عن الإسراف في
استعمال الماء حتى ولو كان من أجل
الوضوء. فقد روى عبد الله بن عمر أن
رسول الله ﷺ مر بسعد وهو يتوضأ
فقال: «ما هذا الإسراف؟»، فقال: أفي
الوضوء إسراف؟ فقال: «نعم، وإن
كنت على نهر جار» (١).

فالوسطية الرشيدة هي مسلك
المسلمين ودعوة الإسلام لأتباعه في كل
الأحوال وعموم الأوقات، ومن ثم فإنها
خير ضمان لحماية التوازن البيئي، سنة
الخالق جل وعلا لا احتضان الحياة
واستمرارها على كوكب الأرض .
ولقد أجمعت الدراسات التي أجريت

حول مشكلات التلوث البيئي على
وجود علاقة وثيقة بين إسراف الإنسان
في تعامله مع مكونات البيئة المختلفة
وبين التلوث بجميع أشكاله ، كما أن
الإسراف يفضي إلى مشكلات بيئية
أخرى لا يقتصر تأثيرها على الإنسان
وحده ، بل يمتد ليشمل باقي الأحياء
التي تشاركه الحياة على كوكب
الأرض، وأن ما تعانيه البيئة اليوم من
تدهور شمل ثرواتها الطبيعية التي أو شك
بعضها على النفاذ، وغاباتها الشاسعة
التي أزيل منها الكثير، بالإضافة إلى
بعض أنواع الطيور والحيوانات
والكائنات البحرية التي انقرضت أو في
طريقها إلى الانقراض؛ ليس إلا نتيجة
طبيعية لتدخل الإنسان الزائد عن الحد بما
يفسد على البيئة نظامها المحكم الدقيق.

ولا شك أن خير وسيلة لإنقاذ
البشرية أو البيئة من آثار الإسراف
واستنزاف الموارد الطبيعية دون جدوى
أو أضرار بالأخطار إنما يكون بالعودة
إلى منهج الدين الإسلامي في الوسطية
والاعتدال؛ حيث «لا ضرر ولا
ضرار» (٢).

(١) سنن ابن ماجه / ٤٢٥ .

(٢) د. أحمد فؤاد باشا: الفلسفة الإسلامية ومشكلات البيئة. ضمن أعمال المؤتمر الدولي الأول للفلسفة الإسلامية . كلية دار العلوم
١٩٩٦م.

على أن الدعوة إلى الوسطية والاعتدال لا تعنى بطبيعة الحال أن يقف الإنسان مكتوف الأيدي إزاء النظم البيئية المحيطة به، أو أن يعطل أداء واجب التعمير الذي تقتضيه أمانة الاستخلاف في الأرض، ولكنه يعنى أن يتعامل الإنسان مع هذه النظم البيئية بما يمكنه من تطوير حياته دون إسراف في استخدام الموارد الطبيعية أو جور على حقوق الآخرين، وخاصة وأن حكمة الاستخلاف تستلزم إقامة الحضارة، وتحقيق النماء، وإزالة ما يعترضهما من عوائق .

والإصلاح واجب تستلزمه الأمانة أيضاً، ويتسع مفهومه ليشمل إعادة كل شيء إلى أحسن صورة ممكنة يقول الله تعالى : ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [هود: ٨٨] والإصلاح من شعب الإيمان، والقيام به يؤدي إلى طريق الجنة.

عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «الإيمان بضع وسبعون أو بضع وستون شعبة ، فأفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق» (١) .

وعنه ﷺ أيضاً أنه قال : «مر رجل بغصن شجرة على ظهر طريق فقال: والله لأنحن هذا عن المسلمين لا يؤذيهم، فأدخل الجنة» (٢) .

فالإصلاح في الإسلام مستوى رفيع من الإيجابية يتعدى مرحلة التمنى السلبي بالخير والامتناع عن الشر ومنع الغير من الإضرار بالاجتماع، ولكن المؤمن من يرتقى هنا من شعوره باتمائه للجماعة إلى إحساسه بالمسئولية نحو ما يهددها من أخطار، فيسعى جاهداً لإزالة هذه الأخطار من حياة المسلمين .

وبالطبع لا يشترط أن يكون هذا الفرد هو مصدر الأذى أو الخطر، حتى يندفع لإزالته ، بل إنه يتطوع لإزالة أي ضرر تسبب فيه غيره، وقصرت همته عن أن يزيله، فالمؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى، وهذا التطوع يعنى أنه أثر الغير على نفسه، واستغل وقته وطاقته لتحقيق الصالح العام للجماعة، وهو إذ يقوم بذلك فإنما ينطلق من دافع الحب للمسلمين حباً يتغنى به مرضاة الله تعالى ، وهذا هو كمال الإيمان، روى أبو أمامة عن النبي ﷺ قال : « من أحب الله، وأبغض لله،

(١) رواد مسلم .

(٢) رواد مسلم .

وأعطى الله، ومنع الله، فقد استكمل الإيمان»^(١).

وعن أبي برزة قال: يا نبي الله علمني شيئاً أتفنع به، فقال ﷺ: «اعزل الأذى عن طريق المسلمين»^(٢).

ويستلزم الإصلاح، تحرك المسلمين لوقف أي فساد يطرأ على المجتمع، وإلا اعتبروا جميعاً ظالمين معرضين للهلاك، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥]، ويقول عز وجل: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ (١١٦) وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿[هود: ١١٦، ١١٧].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٣).

وهكذا تتضح وظيفة الخلافة في الأرض: إقامة حضارة وحمايتها من الإفساد، وإصلاحها مما قد يطرأ عليها من فساد وضرر، وهذا ينعكس على كافة جوانب الحضارة ومجالاتها في الاقتصاد والاجتماع والسياسة والطب وغيرها^(٤).

إن الإسلام - فقط - هو الذي يقدر على تنسيق جميع الأنشطة الإنسانية، بما في ذلك الأنشطة العلمية، والفلسفية، والفنية، والاقتصادية، والسياسية، والدينية، وفي الحقيقة كل نشاط في الإسلام يعتبر عبادة لله لو أنه كان يتم أداؤه لتحقيق الهدف الذي خلق الإنسان من أجله، وهو أن يكون نائب الله على الأرض^(٥).

خاصة حين تكون الحضارة في المنظور الإسلامي هي التزام أخلاقي، فهي التزام يجعل المرء على وعي بالمسئولية الكبيرة التي يتحملها الإنسان الفرد، ليس فقط تحمله المسئولية عن أفعاله الخاصة، وإنما بمعنى عام هو تحمله المسئولية عن العالم الذي يعيش فيه.

(١) رواه أبو داود والترمذي.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه مسلم.

(٤) د. إبراهيم عبد الحميد الصياد: المدخل الإسلامي للطب، ص ١٧٠ - ١٧٣، سلسلة البحوث الإسلامية، ١٩٨٧.

(٥) د. محمد معين صديقي: الأسس الإسلامية للعلم، ص ١٧، للمعهد العالمي للفكر الإسلامي، مصر ١٩٨٩م.

فكلنا نعيش فوق كوكب أرضى واحد أصبح مثل سفينة تتقاذفها الأمواج من كل جانب. ونحن جميعاً سكان هذا الكوكب مسئولون بدرجات متفاوتة عما أصاب هذا الكوكب الأرضى من تلوث في الماء والهواء والغذاء، وما أصاب طبقة الأوزون من تآكل ينذر بخطر داهم يهدد البشرية كلها .

وهذا الفهم الجديد الذي يضع عنصر المسؤولية في مقدمة العناصر الأساسية التي تشكل ظاهرة الحضارة هو الذي أدى - على سبيل المثال - إلى انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية، أو ما أطلق عليه اسم «قمة الأرض» ؛ لمناقشة المشاكل البيئية العديدة التي تهدد الحياة والأحياء على الأرض، في محاولة لإنقاذ البشرية من الأخطار والكوارث التي لا يعلم مداها إلا الله، تلك المشاكل التي نتجت عن التقدم التقنى المنفلت الزمام، وما تسببه النفايات الذرية ونفايات المصانع من تلوث للهواء والماء والغذاء. فهذا المؤتمر المشار إليه يعد تعبيراً عن المسؤولية الحضارية المشتركة التي أصبح سكان الأرض جميعاً مطالبون بتحمل أعبائها، وهذه المسؤولية تعنى أن

الحضارة الحقيقية تضع الإنسان - الذي هو نفسه صانع الحضارة - في قمة اهتماماتها، وإذا قلنا الإنسان فإن ذلك يعنى أي الإنسان بكل ما يعبر عنه ذلك من معنى، الإنسان في شتى جوانب اهتماماته المادية والعقلية والروحية ؛ ومن هنا فإنه لا يجوز اختزال الحضارة في إرضاء الاهتمامات المادية فقط أو الروحية فقط أو العقلية فقط، بل لابد أن يكون هناك توازن بين كل هذه الاهتمامات والمتطلبات، فالأزمة الحضارية الراهنة في العالم ترجع في رأى كثير من المفكرين إلى أن قدرة الإنسان المعاصر على تشكيل ذاته على المستوى الفردي والجماعي، قد تراجعت تراجعاً حاداً خلف قدرته على تشكيل بيئته تشكيلاً مادياً^(١) .

ومن هنا يعد السعى من أجل سيادة السلوك الأخلاقي في مقابل الحضارة الشيئية البحتة مسئولية يشترك في تحملها كل فرد، خاصة حين يكون الإنسان هو هدف الحضارة قبل أي شيء آخر، ويكون وضع الإنسان في الكون وضعاً هاماً من حيث تحمل الإنسان للمسئولية عن الكون، ومن حيث هو خليفة الله

(١) د. عمود حمدي زقزوق : الدين والحضارة ، ص ٨٨، ٨٩، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ١٤ ، ١٩٩٦ .

في أرضه.

ب) البيئة والإنسان والعقيدة :

ومن هنا يجب أن يؤخذ الكون بأسره، أو عالم الشهادة على أنه بيئة الإنسان الكبرى، حتى يمكن وضع تصور عام يتضح فيه الربط بين البيئة ومشكلاتها من جهة، وبين العقيدة من جهة أخرى. وهذا ضروري في فهم العلاقة بين الإنسان والبيئة من منطلق عقدي.

١- التوحيد الخالص: وهو أول الثوابت الإيمانية التي تمثل نقطة الانطلاق وحجر الزاوية في توحيد رؤية الإنسان الصائبة لحقائق الحياة والوجود، خاصة أن الحق طالبنا بالتوحيد الخالص في أول أمر إلهي: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق: ١] ومن كانت عقيدته الدينية هذا التوحيد الخالص، فإنه يجد في نفسه دافعاً أقوى مما يجد سواه نحو أن يبحث دائماً عن الوحدة التي تؤلف بين الكثرة، أيًا كان الموضوع، فيبحث عن محور الوجدانية في الكون بأسره مجتمعة في وجود واحد، ويبحث عن محور الوجدانية في الشخصية الإنسانية برغم اختلاف الجوانب الكثيرة في حياة

الفرد واختلاف العلوم الباحثة في تلك الجوانب^(١).

ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى الإنسان لاستخدام ملكاته الفكرية في تأمل آيات الله في الآفاق وفي الأنفس، للوصول إلى معرفة الخالق حق المعرفة ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣].

ولئن كانت العلاقة بين ثلاثية الدين والإنسان والكون محوراً للنقاش والجدل منذ قديم الزمان، فإن القرآن الكريم قد رتب العلاقة الصحيحة بين هذه القضايا الثلاث في معرض الحث على النظر فيها، وصولاً إلى الحق المطلق، فقد بدأ بالكون (البيئة) الذي هو أول ما يبصره الإنسان حين يفتح عينيه، فهو ينبوع الأول للإيمان، والمسرح الأول للفكر، ثم يثنى بالإنسان المنوط بعملية التفكير في قضايا الوجود الكبرى، وانتهى بقضية الألوهية.

وما دام الإنسان هو محور هذه القضايا الرئيسية، فلا بد أن يعرف حقيقة مكانه في هذا الوجود، وعلاقته بالكون ومن فيه، وعلاقته بخالق الكون والحياة

(١) د. أحمد فواد باشا: نسق إسلامي لمناهج البحث العلمي: تحديد الثوابت والمتغيرات، مجلة منير الحواري، العدد ١٧، ١٩٩٠م.

تَفَاوَتْ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ
فُطُورٍ ﴿[الملك: ٣] .

وقد أكد القرآن الكريم حقيقة
التوازن البيئي (الكوني) في مواضع
مختلفة، ونبه العباد إلى الحكمة السامية
وراء التناسق والنظام في خلق هذا
الكون، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ
شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] .
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا
خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾
[الحجر: ٢٠] .

ونلاحظ ورود لفظ «قدر» في
الآيتين السابقتين، وفي آيات أخرى في
القرآن فيما يتصل بالآيات الكونية،
وهي تعبر عن المقدار الدقيق والذي
تستخدم الرياضيات البحتة الآن في
التعبير عنه في علوم الفيزياء الحديثة،
ويُذكر العلماء وحدهم الآن مدى الدقة
البالغة في إحكام الكون وقوانينه، والذي
لا يمكن التعبير عنه إلا بلغة الرياضيات،
ومما له دلالة بالغة أن يحصى المفسرون
في القرآن الكريم أكثر من سبعمئة
وخمسين آية تتعلق بالكون، بينما آيات
الفقه لا تتعدى المائة والخمسين آية،
وكثير من هذه الآيات تحدثنا عن سنن

الذي حملته أمانة الاستخلاف بتطبيق
أوامره ونواهيه على مسرح الأرض، أو
مسرح الكون، ولعل التعبير بالأرض،
على ما يرى باحث معاصر^(١) في قوله
سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ
لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ
خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] مبعثه أن الإنسان
ألصق بها من غيرها، فيكون الكون
بذلك مقام الوسيلة التي يحقق بها
الإنسان غاية وجوده .

٢- التوازن البيئي (الكوني):

فالإيمان بوحداية الله، يستلزم
بالضرورة العقلية أن يرد الإنسان كل
شيء في هذا الوجود إلى الخالق الحكيم
الذي أوجد هذا العالم بإرادته المباشرة
المطلقة، وخلقته على أعلى درجة من
الترتيب والنظام والجمال، وأخضعه
لنواميس ثابتة لا يحيد عنها، وحفظ
تناسقه وتوازنه في ترابط محكم بين
عوالم الكائنات ونظمها البيئية، وبين
أحاديها ومجموعاتها، وجعل بناء آية في
الروعة والكمال، ليس فيه اختلاف ولا
تنافر ولا نقص ولا عيب ولا خلل، قال
تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ
طِبَاقًا مَا تَرَى فِيهِ خَلْقَ الرَّحْمَنِ مِنْ

(١) د. عبد المجيد النجار: الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية. مجلة المسلم المعاصر العدد ٧٧. القاهرة ١٩٩٥ .

الله الكونية، وهي قوانين ثابتة لا تتغير، وما قد يطرأ عليها من تغير أو انحراف هو نتيجة إفساد الإنسان وإسرافه في التعامل مع ظواهر الكون وأسبابه.

وعندما نتأمل الواقع البيئي نرى العديد من الأمثلة التي تؤكد سمة التوازن في الكون، والإسلام يمنح أتباعه رؤية شاملة ومنهجاً سليماً يؤسس فيه عقيدة التوحيد من خلال عرض مشاهد الكون وانضباط قوانينه وحركته، فضلاً عن أنه يلفت الأنظار إلى أهمية اكتشاف قوانين التسخير الكونية باعتبارها أساس التقدم العلمي والتقني لعمارة الأرض، قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان: ٢٠]^(١).

٣- العلاقة بين الإنسان المسلم والبيئة: وتتميز هذه العلاقة بخصائص وأبعاد، أهمها أنها علاقة توازن وألفة وانسجام لصالح الحياة والأحياء، بما فيهم البشر الذين هم قمة الأحياء،

وليست أبداً علاقة حرب وقلق وتنافر وعداء وصراع كما يزعم بعض الماديين الطبيعيين Naturalists الذين يقولون إن العالم الطبيعي وجد نفسه دون علة خارجيه عنه، ويتعاملون مع بعض الظواهر الكونية على أنها «كوارث طبيعية» خالية من كل خير، ويعدون كل كشف لقانون من قوانين الكون، وكل تسخير لطاقة من طاقاته، وكل اختراع لتقنية متقدمة جديدة، انتصاراً على الطبيعة، أو قهراً لها وهيمنة عليها^(٢).

وقد بدأ كثير من علماء الطبيعة الآن يفقهون من هذا الوهم ويدركون ضرورة عودة الوفاق مع الطبيعة، وأهمية انسجام الإنسان مع الكون، خاصة بعد كشف كثير من آليات الطبيعة وظواهرها والإدراك لذلك التوازن الدقيق بين قوانينها، وعلى ذلك فكما يقول «هايكل»^(٣): فإن الإيكولوجيا «علم تناسق الطبيعة» تستهدف تسليط الأضواء على علاقات متبادلة لم تكن تختل على بال.

(١) انظر د. أحمد فواد باشا: البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامي، مجلة الأزهر، ديسمبر ١٩٩٦ م.
(٢) وقد وصف «رينيه دوبو» أساس الحضارة في أمريكا حينما هاجر إليها الناس من أوروبا؛ إذ يقول: اعتبر أغلب مهاجري القرن التاسع عشر الأخرج والسهول والجبال برية بشعة يجب غزوها والسيطرة عليها وامتلاك زمامها لتوفير الغنى المادي. انظر: رينيه دوبو: إنسانية الإنسان، ص ٢٤٩ (Rene Dubos)
(٣) جان ماري بيلت: عودة الوفاق بين الإنسان والطبيعة، ترجمة السيد عثمان، ص ٢٧.

بطبيعة الحال، يفضى التحليل النافذ - وإن كان غير كامل - لداروين وبرهنته على تعقد العلاقات بين الكائنات الحية، إلى فكرة تنطوى على قدر كبير من التوازن ومؤداها أنه في داخل أي نظام إيكولوجي^(١)، وفي كافة أنحاء الطبيعة تقيم الكائنات الحية - النباتات - والحيوانات والناس - علاقات جدلية قوامها التنافس والتعاون، ومن هاتين القوتين، النابذة والجاذبة، تنشأ في كل لحظة تلك التوازنات التي لا غنى عنها للحياة. ومن هذه الرؤية الجديدة، انبثقت في منتصف القرن الماضي مفاهيم الصراع من أجل الحياة، والتوتر، والتكيف، والمقاومة، والمجاهبة، والأزمة التي سوف تلعب من ذلك الحين فصاعداً دوراً أساسياً في تفسير الظواهر الحية، وفي نهاية القرن العشرين بدأ التراجع عن كثير من هذه المفاهيم التي سادت في القرن الماضي.

ومن هنا ندرك مدى دقة القرآن الكريم في التعبير عن العلاقة بين الإنسان والبيئة المحيطة به، فلقد صور القرآن الكريم في كثير من آياته الكريمة

حقيقة تلك العلاقة الحميمة بين الإنسان والبيئة، وأخير الحق تعالى بأن كل مكونات البيئة في هذا الكون الفسيح قد أعدها لاستقبال الحياة ولكفالة الأحياء فقال: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ﴾ [لقمان: ٢٠].

كما أكدت السنة المطهرة علاقة المودة الصافية بين الناس وما تحتويه بيئته من موجودات حية وغير حية، فقد كان رسول الله ﷺ يقول عن جبل أحد، وهو يُدَّله دليل الصديق: «هذا جُبيل يحبنا ونحبه»^(٢) فيخلع عليه الحياة، ويشعر بالحب منه، كما يشعر بالحب له، ومثل هذا الشعور بالقربي يلقي في النفس بعداً إيمانياً يزيد من انفساحها للكون والإقبال على التعامل معه بكل الطاقات الإبداعية.

وحينما قال النبي ﷺ: «أكرموا بني عماتكم النخل»^(٣) فذلك منه تعبير عن وشائج الألفة بين الإنسان وعناصر الطبيعة، ألفة نبتت جذورها من الوحدة

(١) النظام الإيكولوجي: وحدة تنظيمية بيولوجية تتألف من كائنات حية على علاقة بالبيئة المادية التي تعيش فيها. ويحدد هذه الوحدة طابعها الوظيفي، أي مجموع العلاقات المتبادلة، الدينامية والوظيفية، القائمة بين جميع عناصره المكونة، المرجع السابق، ص ٤١.

(٢) انظر د. عبد المجيد النجار: الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية، مجلة المسلم المعاصر، العدد ٧٧، ١٩٩٥ م.

(٣) كاصد الزبيدي: الطبيعة في القرآن الكريم. دار إفريقية، بغداد ١٩٨٠.

المتعددة المظاهر بين الإنسان والكون .
ومن البين أن هذا الأثر النفسي من
المودة والألفة ينفي من نفس الإنسان
مشاعر الخوف والعداء التي تتأتى من
اعتقاد الغربة والتناقض، إذ الإنبات
وانعدام اللوشائج تزرع في الإنسان
الشعور بالغربة، والشعور بالغربة إزاء
شيء من الأشياء أساس لنشوء الخوف
والعداء .

وانتفاء مشاعر الخوف والعداء إزاء
الكون هو الشرط الأول لصنع مناخ
نفسى تستعد فيه نفس الإنسان للإقبال
على الكون والانفتاح عليه، والتعامل
معه بتلقائية ويسر إذ تحتفى حالة التوتر
والجنوح التي تؤدى إلى تعطيل الطاقة
الإنسانية وتصددها عن الامتداد الطبيعي
الفعال^(١) .

ومن البين أن افتقاد البشرية لهذا
البعد الإيماني والشعور النفسى القائم
على المعرفة الصحية لطبيعة العلاقة بين
الإنسان والبيئة (الكون) كما يعرضها
المنهج الإسلامى المنفرد، هو الذى يدلنا
على طبيعة الحرب التى شنها الإنسان
على نفسه فى غمرة انشغاله بثورة العلم

والتقنية ، فهى حرب ضد الحياة على
كوكب الأرض، والإنسان المتورط فيها
هو ذاته الذى يسعى جاهداً الآن
ليكسبها ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾
[الأحزاب: ٧٢] .

ومن هنا لا يكون غريباً أن نجد عناية
الإنسان فى الإسلام تمتد إلى كل مظاهر
الكون ، سواء هذا الكون المادى أو
ذلك الكون المتمثل فى الكائنات الحية
من نبات وحيوان وطيور، فنجد الحديث
الشرىف يقول : « ما من مسلم يغرس
غرساً أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو
إنسان أو بهيمة إلا كان له به
صدقة»^(٢) .

واعتبر الرسول ﷺ غرس الأشجار
وتطهير الأنهار وحفر الآبار وغيرها من
الأعمال النافعة صدقة جارية فقال:
«سبع يجرى للعبد أجرهن وهو فى القبر
بعد موته: من علم علماً، أو كرى نهراً،
أو حفر بئراً، أو غرس شجرة، أو بنى
مسجداً أو وهب مصحفاً، أو ترك ولداً
يستغفر له بعد موته»^(٣) .

وقد امتدت عناية الإسلام بالرحمة
والإشفاق على الحيوانات باعتبارها أحد

(١) كريس موريسون: العلم يدعو للإيمان ، ترجمة عمود صالح الفلكى ، دار القلم ، بيروت ١٩٨٦ .

وانظر د. عبد المجيد النجار: الإنسان فى العقيدة الإسلامية ، ص ٢٨ .

(٢) رواه البخارى .

(٣) الترغيب والترهيب - الجزء الخامس .

العناصر الحية في البيئة، فعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال : «دخلت امرأة النار من جراء هرة لها ربطتها فلا هي أطعمتها ولا هي أرسلتها ترمم من خشاش الأرض حتى ماتت هزلاً»^(١).

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنه قال: «ما من إنسان قتل عصفوراً فما فوقها بغير حقها إلا سأل الله تعالى عنها، قيل: وما حقها؟ قال: «يذبحها فيأكلها، ولا يقطع رأسها يرمى بها»^(٢).

كما يقول النبي ﷺ: «اتقوا الله في البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، واكلوها صالحة»^(٣).

وما روي عن شداد بن أوس: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا القتلة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذبحة، وليحد أحدكم شفرته، فليرح ذبيحته»^(٤).

ولم تمنع هذه الرحمة السابقة في

الإسلام من قتل الحيوانات الضارة في حالة الإحرام مثلاً: عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «خمس لا جناح على قتلهن في الحرم والإحرام: الفأرة، والغراب، والحدأة، والعقرب، والكلب العقور»^(٥).

وتتسع الرحمة لكل كائن حي في قوله ﷺ: «في كل ذات كبد رطبة أجر»^(٦).

إن الإسلام نهى عن الإفساد في البيئة حتى في أوقات المعارك والجهاد ضد الأعداء، فيقول الرسول ﷺ آمراً جنده: «لا تقتلوا امرأة، ولا وليداً، ولا شيخاً، ولا تحرقوا نخيلاً ولا زرعاً»^(٧).

كما أن للمجتمع والبيئة حقوقاً على كل مسلم، ومنها حق الطريق، ففي حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «فاعطوا الطريق حقه». قالوا: وما حقه؟ قال النبي ﷺ: «غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر»^(٨).

(١) البخاري .

(٢) الترمذي : الضحايا .

(٣) البخاري: الأدب .

(٤) البخاري ومسلم / الذبائح .

(٥) رواه الشيخان .

(٦) البخاري / المساق .

(٧) رواه أحمد .

(٨) رواه أحمد .

ومن هنا لم يكن غريباً أن نجد باحثاً معاصراً^(١) يرجع تلك المشكلات البيئية المفزعة إلى تراجع الروح الدينية في العالم الغربي، والافتتان بالعلم في قدرته الكشفية والتكنولوجية الهائلة، الذي كان هو السبب القوي في إغراء الإنسان بمصارعة الطبيعة بقصد إخضاعها لرغائبه المادية، وهو ما أشار إليه «دوبو» أيضاً في قوله: «وقد أدى الدين عادة هذا الدور (مواءمة الطبيعة) عندما خلق فينا احتراماً للقوى الغامضة التي تحيط بنا، ولكن تأثير العلم على مدنيّتنا أوهمنا أننا ذوو قوة وسلطان للسيطرة على الكون»^(٢).

ومن هنا يقول الباحث: «ولعل الوضع المفزع الذي آلت إليه الطبيعة من التلوث يعد واحداً من آثار فكرة الصراع المضمرة في أذهان صانعي الحضارة المادية الحديثة ومديريها، حيث أثمرت تلك الفكرة نزوعاً جارفاً إلى امتصاص خيرات الطبيعة، حينما تمت السيطرة عليها بالعلم، ثم الإلقاء بالنفايات بما يعود عليها بالضرر الويل، فيما يشبه حال ذلك الوحش الذي يصرع فريسته فياً كل منها، ثم يعبث

بما بقى منها». وقد كان هذا الوضع الذي نتج عن فكرة الصراع مفزعاً للعقلاء من أهل الحضارة الغربية، فأطلقوا الصيحات العالية منبهة إلى وجوب تدارك الوضع، وإعادة بناء العلاقة مع الطبيعة لتكون علاقة وئام لا الصراع، ولذلك تأسست الجمعيات الكثيرة، بل والأحزاب السياسية التي تقوم على هذا المعنى، قبل جمعيات الرفق بالحيوان وجمعيات المحافظة على الطبيعة الخضراء، ومقاومة التلوث.

وقد كتب «رينيه دوبو» في هذا السياق في كتابه الشهير «إنسانية الإنسان» في نقد العلاقة العدائية بين الإنسان والطبيعة التي قامت عليها الحضارة الغربية، وينتهي في كتابه إلى القول: «إن غزو البيئة أو السيطرة عليها ليست الطريقة الوحيدة للتخطيط، ولا هي على كل حال الطريقة الفضلى، وعلى الإنسان عوضاً عنها أن يحاول التعاون مع قوى الطبيعة، يجب أن يجعل نفسه جزءاً من البيئة بحيث يصبح هو ونشاطاته في وحدة عضوية مع الطبيعة»^(٣).

٤- القيمة الجمالية : وهناك بُعد

(١) د. عبد المجيد النجار: الإنسان والكون في العقيدة الإسلامية . ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) رينيه دوبو: إنسانية الإنسان . ص ٢٤٢ . نقلاً عن المرجع السابق .

(٣) المرجع السابق ص ٢٤٧ .

جديد يغيب عن كثير من الباحثين والمهتمين بشئون البيئة، ولكنه لا يغيب عن الرؤية الإسلامية، ذلك هو البعد الجمالي - فعند استقصاء حكمة الخالق في إبداع الكون وتكوينه يجب أن يستشعر الإنسان حقيقة البعد الجمالي في العلاقة بين الإنسان والبيئة، وهو ما يقابل القصد الإلهي في إبداع الكون الجميل الصفات العجيب التلوين والتكوين، يقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [فاطر: ٢٧، ٢٨].

وهذه الدعوة القرآنية إلى تأمل الجمال الكوني، هي دعوة إلى الارتفاع بعلاقات الإنسان بالكون والبيئة إلى مستويات عليا من السلوك والرؤية الإنسانية النبيلة في مستويات الإصلاح والأعمار لا تقتصر فقط على الإصلاح المادي، بل تتعداه إلى الجمال المعنوي

البادي في الكون، والذي يسعى الإنسان إلى تأمله والمساعدة على الاحتفاظ به وصيانتها، وهي دعوة في حقيقتها إلى التفوق في مجال العلوم الكونية المعنية بدراسة ظواهر الكون والحياة للإفادة منها في تطوير حياة البشر وفهم أسرار الوجود.

ويؤكد أهل العلم البعد الجمالي في علاقة الإنسان بالبيئة إلى الحد الذي يجدون فيه أن النظر البليد إلى الأرض والسماء دون إحساس بالجمال هو نوع من المعصية ينبغي أن نتوب عنه^(١). فالتأمل في السماء وما يدور فيها من كواكب وما ينتشر فيها من أفلاك، يجب ألا يغفل عن زينتها التي نبه إليها الحق في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ [الحجر: ١٦] فالجمال سمة بارزة من سمات هذا الوجود، إن لم تكن أبرز سماته، والحس البصير المتفتح يدرك الجمال من أول وهلة وعند أول لقاء، وهو ليس أمراً ضرورياً في هذا الكون، على الرغم من تجليه في كل مكان، ومن هنا يعتبر من كمال هذا الكون ومن تمام هذا الوجود، وهو نوع من

(١) الشيخ محمد الغزالي: فلسفة الفن في الإسلام. مجلة المسلم المعاصر. العدد ٥٨. ١٩٩٠.

النظام والتناغم والانسجام، ذو مظاهر لا حصر لها، فالدقة والرقّة والتناسق والتوازن والترابط ومظاهر أخرى كثيرة يشعر بها الوجدان وإن لم يستطع التعبير عنها ببيان^(١).

وعند النظر إلى الأنعام من زاوية فوائدها المادية وقيمتها كثرة حيوانية، يجب أن نحافظ على الصورة الجمالية التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: ﴿وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ [النحل: ٥، ٦].

ولما كان الجمال مقصوداً قصداً في خلق الكون، وكان البعد الجمالي ضرورياً في علاقة الإنسان بالبيئة، فإن ما حدث في عصرنا من أشكال التلوث البيئي المختلفة يجب النظر إليه على أنه اعتداء أقيم على توازن البيئة المحكم وتشويه متعمد لشكلها الجمالي الذي جعلها الله عليه. ومن ثم يكون العمل على حماية البيئة من مختلف أشكال التلوث والفساد، والإبقاء على الجمال في صفحات الكون، مطلباً إسلامياً عزيزاً تستحث لأجله الهمم وتستثار

الغرائز^(٢).

ج - الإسلام ونظافة الإنسان أو البيئة :

لا يوجد دين اهتم بالدعوة إلى نظافة الإنسان والبيئة كالإسلام، والمتأمل في آيات القرآن يجد أن أول سورة نزلت كانت تنادي بالعلم، وثاني سورة نزلت تنادي بالنظافة، فقد جاء في السورة الأولى قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ﴾ وجاء في السورة الثانية قوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ فَطَهُرٌ﴾ [سورة العلق وسورة المدثر].

وترتبط نظافة البيئة في الإسلام ارتباطاً وثيقاً بمفهوم «الطهارة»، والطهارة في لغة العرب هي النزاهة عن الأقدار. وتكتسب الطهارة أهمية خاصة في الشريعة الإسلامية لارتباطها بأهم الواجبات الدينية المتمثلة في الصلاة. وقد وردت الطهارة واشتقاقاتها المختلفة في ٣١ موضعاً بالقرآن الكريم، وساد مفهوم الطهر من النجاسات والأقدار ما يقرب من نصف تلك المواضع، مثل قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَيَذَرُكَ فَطَهُرٌ (٤) وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ [المدثر: ٤، ٥] ﴿فَاعْتَزِّلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ﴾

(١) د. بركات محمد مراد: فلسفة الجمال في الفن العربي الإسلامي. المجلة العربية للثقافة. العدد ٢٨، تونس ١٩٩٥.

(٢) د. أحمد فؤاد باشا: البيئة ومشكلاتها من منظور إسلامي. مجلة الأزهر. ديسمبر ١٩٩٦.

[البقرة : ٢٢٢] . ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة : ٦] ﴿فِيهِ رَجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ﴾ [التوبة : ١٠٨] .

وقد وردت الطهارة في بقية المواضع الأخرى بمعنى غير حسي أو مادي، وهو ذلك المتصل بالطهارة من عبادة الأوثان وقول الزور، ويمثل ذلك قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ... أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ﴾ [المائدة : ٤١] .

وكذلك طهارة القلب والمال، كما في قوله تعالى : ﴿ذَلِكَمُ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب : ٥٣] وقوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة : ١٠٣] وذلك لأن الطهارة التي يسعى إلى تحقيقها الإسلام للإنسان المسلم لا تقتصر على الطهارة الحسية والمادية فقط، بل تتعداها إلى الطهارة النفسية والروحية والأخلاقية .

ولا نجد ديناً أو مذهباً فلسفياً إنسانياً اهتم بالطهارة وحارب التلوث مثل

الدين الإسلامي، الذي بالغ في هذا الأمر من أجل إقامة حياة صحية للمسلمين، فقد حدد الإسلام ثلاث عشرة مادة إذا أصابت إحداها أي شيء، مثل: ثوب الإنسان أو جسمه أو طعامه أو شرابه أو إناء الطعام أو أرض الغرفة أو أرض الشارع أو أصابت الماء الدائم المستعمل للشرب أو الغسيل أو الوضوء، ولو كان من ماء بئر أو نهر، فإنها تنجس هذا الشيء (أو العين) كما يسميها فقهاء الإسلام، ولا يتطهر إلا بإزالة هذه النجاسة بغسلها بالماء الجاري أو عليها على النار بما يشبه نوعاً من التعقيم الطبي على الرغم من عدم معرفة العرب والمسلمين في هذا الزمان القديم بعالم الميكروبات والجراثيم.

ويشترط الإسلام لإزالة هذه النجاسة إزالة كل ما يتصل بها، فهو يشترط عليك أن تزيل لون النجاسة ورائحتها وطعمها أيضاً. وبذلك يكون الإسلام، كما يقول باحث معاصر^(١)، أول من نبه إلى أن تغير اللون والرائحة والطعم دليل على وجود ميكروب حي يتفاعل، أما المواد النجسة التي أشار إليها الإسلام، والتي قد تحمل الميكروبات، فمنها:

(١) د. أحمد شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الإسلام . ص ١٧ ، ١٨ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ .

ويقول الرسول ﷺ : «إن توضأ العبد فمضمض خرجت الخطايا من فمه، فإذا استنثر خرجت الخطايا من أنفه، فإذا غسل وجهه خرجت الخطايا من وجهه، حتى تخرج من تحت أشفار عينيه، فإذا غسل يديه خرجت من يديه حتى تخرج من تحت أطراف يديه، فإذا مسح برأسه خرجت الخطايا من رأسه حتى تخرج من أذنيه، فإذا غسل رجليه خرجت الخطايا من رجليه حتى تخرج من تحت أطراف رجليه، ثم كان مشيه إلى المسجد والصلاة نافلة» وهذا يؤكد على أن النظافة والطهارة كانت شيئاً مقصوداً لذاته، إضافة إلى العبادة الروحية لله تعالى في الإسلام .

وكثيراً ما يشير القرآن إلى النجاسة والميكروب بكلمة الرجس والشیطان فيقول تعالى : ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْقَلُ ذَرَّةٍ مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ﴾ [الأنعام : ١٤٥] ويشير إلى الطهارة أي التخلص من الميكروب بالغسيل بالماء الجاري، فيقول سبحانه وتعالى : ﴿وَيُنْزِلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ﴾ [الأنفال : ١١] .

ومعروف في عصرنا الحاضر أن مجرد

البقيح - والبراز - والدم - والبول - والمني - والقىء - والخمر - ولعاب الكلب - ولحم الخنزير، وكل شيء عفن كبقايا الحيوان الميت أو الحي .

والإسلام أول دين يتحدث عن الميكروبات والطفيليات، وهو يكتفي عنها بكلمة الخبث أو الخطايا أو الشيطان، وهذا شيء طبيعي، فلم يكن العلم قد تقدم واكتشف عالم الميكروبات بعد، ذلك العالم الذي اكتشف بعد صنع الميكروسكوب الكبير، وما يهم الإسلام في مراحل الأولى في ذلك الزمن القديم، هو أن يكتسب المسلمون سلوكاً صحيحاً سليماً يساعد على العيش في رغد وهناء، على اعتبار أن اكتشاف هذه العوامل الدقيقة موكل بتقدم الإنسانية العلمي، وهو راجع إلى سنن الله الكونية التي تكشف عن نفسها عندما تتوفر للإنسان شروط وأسباب معرفتها. ومن أمثلة ذلك قول الرسول ﷺ : «قلم أطافرك فإن الشيطان يقعد على ما طال تحتها» وفي ذلك إشارة واضحة لا تحتاج إلى مزيد من التفسير إلى الميكروبات التي تعيش تحت الأطراف كالتيفود والدوسنتاريا أو إلى بعض الديدان (كالاسكورس) .

الغسيل الجيد بالماء الجاري ولو كان ليد الجراح الذي سيجرى عملية جراحية في غرفة العمليات ، فإنه يكفى لتطهيرها وتعقيمها من الميكروب .

وقد أراد الإسلام بذلك أن يجعل من النظافة عقيدة وسلوكاً ملزماً للمسلم، وليسست مجرد الخوف من المرض، فهو بهذا يجعل النظافة جزءاً لا يتجزأ من تعاليم العبادة والصلاة، بل إنه جعلها من الإيمان، بل نصف الإيمان، قائلاً ﷺ: «النظافة شطر الإيمان»^(١) .

فإذا أردنا استعراض أشكال النظافة في الإسلام، فإننا نجد أنها تشمل الإنسان، كما تشمل كل البيئة المحيطة به، وهي على الترتيب التالي :

أولاً: نظافة الجسم

Personal Hygiene

حث الإسلام المسلم على نظافة البدن، فقال ﷺ: «النظافة تدعو إلى الإيمان، والإيمان مع صاحبه في الجنة»^(٢). كما قال ﷺ: «تنظفوا فإن الإسلام نظيف»^(٣) ولذلك لا يكتفى الإسلام بالوضوء قبل الصلاة كوسيلة للنظافة، بل يأمر بالغسل أي الاستحمام في كل مناسبة ، حتى لقد أحصى علماء

الفقه الأسباب الداعية للاستحمام في الإسلام بأنها سبعة موجبة وستة عشر مستحبة، أي أنها ثلاثة وعشرون سبباً. كما يلتزم المسلمون بالاجتماع والالتقاء معاً مرة كل أسبوع في صلاة الجمعة التي يستحب فيها الغسل لقوله ﷺ: «غسل يوم الجمعة واجب، والسواك، وأن يمس من الطيب ما يقدر عليه» . وقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل» ، بل لا يجوز للمسلم أن يمضي عليه أكثر من أسبوع دون استحمام؛ وذلك لقول الرسول ﷺ: «حق على كل مسلم أن يغتسل كل سبعة أيام يوماً يغسل فيه رأسه وجسده» .

وأما الجنابة فقد فرض الإسلام على الرجال والنساء الاستحمام من الجنابة، كما حض النساء على وجوب الاستحمام من الحيض، ولا يكتفى الإسلام بالاستحمام لنظافة الجسم، بل إنه يأمر بإزالة كل ما يمكن أن تتجمع تحته القذارة والميكروبات في جسمه . فمن ذلك أمره بالاستحداد، أي حلق شعر العانة، ونتف الإبط، والختان للذكور، وقص الشارب حتى لا يعلق فيه الطعام والأوساخ، وفي هذا يقول

(١) د. شوقي الفنجري: الطب الوقائي في الإسلام . ص ١٨ ، ١٩ .

(٢) رواه أحمد وأبو داود والترمذي وابن ماجه والحاكم .

(٣) رواه الطبراني .

الرسول ﷺ : « خمس من الفطرة : الاستحداد، والختان، وقص الشارب، ونتف الأبط، وتقليم الأظافر » .

وقد دقق الإسلام بشدة على نظافة الأيدي، وهي من أهم الأعضاء في نقل المرض، وأمر بغسل الأيدي في الوضوء ثلاث مرات، في المرة الواحدة بحيث يصل الماء إلى المرفقين. ويقول الرسول ﷺ : « اغسل يديك قبل الأكل وبعده » ، كما أمر بقص الأظافر وتنظيفها : « قلم أظافرك فإن الشيطان يعقد على ما طال منها » كما يقول الرسول ﷺ : « إن الشيطان حساس لحاس فخافوه على أنفسكم .. من بات وفي يده غمر فلا يلومن إلا نفسه » . والغمر هو بقايا الطعام الدسم واللحم .

كما يحث الإسلام على غسل الأيدي قبل النوم وبعد الاستيقاظ ، يقول ﷺ : « إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة » ويقول : « وإذا قام أحدكم من نومه فليغسل يديه فأن لا تدري أين كانت يداك » .

ومن تعاليم الإسلام أيضاً غسل الأيدي قبل الدخول على المريض وبعد

الخروج من عنده .

ومن السنة أن يخلل الإنسان ما بين أصابع القدمين في الغسل وعند الوضوء، يقول الرسول ﷺ : « إذا توضأت فخلل أصابع يديك ورجليك » .

كما حذر النبي ﷺ من عدم تحليل الأصابع حين قال : « من لم يخلل أصابعه بالماء خللها الله بالنار يوم القيامة »^(١) . وهذا الوعيد الذي يتضمنه الحديث الشريف يستهدف دفع المسلم إلى تحليل أصابعه بالماء لإزالة ما بينها من الأوساخ، خاصة وأن هذه الأماكن مرتع لأنواع مختلفة من البكتيريا والطفيليات .

أما نظافة الفم والأسنان فقد أخذت اهتماماً كبيراً من توجيهات النبي ﷺ ، فقد كان ﷺ يستاك إذا أخذ مضجعه وإذا قام من الليل وإذا خرج إلى الصلاة، وكان الصحابة يحملون معهم سواكهم أينما ذهبوا ويربطونها في ذوائب سيوفهم، وكان نساء الصحابة يحملن السواك في خمرهن^(٢) ، وذلك كله لشدة اهتمام الإسلام بصحة الفم ونظافته التي تتوقف عليها صحة المعدة وصحة جسم

(١) رواه الطبراني عن واثلة رضي الله عنها .

(٢) د. شوقي الفنجري: الطب الوقائي في الإسلام، ص ٢٢ - ٢٤ .

الإنسان عامة. وقد بين الرسول ﷺ حكمة استعمال السواك فقال: «السواك مطهرة للفم مرضاة للرب»^(١).

فالسواك يطهر الفم ويزيل ما يعلق بين الأسنان من فضلات الطعام. وقد أوضح العلم الحديث أن المواد التي يتضمنها السواك (خشب الأراك) تقتل الجراثيم، فتشفي الأفواه من الأمراض، ولا يقتصر استخدام السواك على الأسنان، بل تشمل اللسان أيضاً. والمعروف الآن أن البكتيريا تتكاثر أيضاً على سطح اللسان كما تتكاثر على بقايا الأطعمة بين الأسنان، قال أبو موسى: «أتينا رسول الله ﷺ، فرأيت أنه يستاك على لسانه»^(٢).

ومن هنا لم يكن غريباً أن يقول الرسول ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة». ورأى بعض صحابته يهمل نظافة أسنانه فقال: «مالي أراكم تدخلون عليّ قلحاً.. استاكوا رحمكم الله».

ومن هنا يقول النبي ﷺ: «إني لأستاك حتى لقد خشيت أن أحفى مقادام فمي». ونظراً لأن السواك

يتلوث ببقايا الطعام، فقد أوجبت الشريعة الإسلامية ضرورة غسل السواك بالماء لإزالة ما عليه. قالت عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يعطيني السواك أغسله، فأبدأ به فاستاك، ثم أغسله، ثم أدفعه إليه»^(٣) وروى عنها أنها قالت: «كنا نعد لرسول الله ﷺ ثلاث أو أربع مخمرة من الليل: إناء لظهوره، وإناء لسواكه، وإناء لشرايه»^(٤).

كما اهتم الإسلام بنظافة شعر الرأس، حيث يأمر الإسلام بتهديب الشعر وحسن مظهره، فالرسول ﷺ يقول: «من كان له شعر فليكرمه». وعن عطاء بن يسار أن رجلاً ثائر الرأس واللحية دخل على رسول الله ﷺ، فأشار إليه الرسول ﷺ وأمره بغسل شعره وإصلاحه، ففعل ثم رجع إلى محل الرسول ﷺ، فقال: «أليس هذا خيراً من أن يأتي أحدكم ثائر الرأس كأنه شيطان».

ورأى النبي ﷺ رجلاً أشعر أشعث، فقال: «أما وجد هذا ما يسكن به شعره».

(١) رواه أحمد وأحمد والنسائي والترمذي.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود.

(٤) أخرجه ابن ماجه.

«أو كُتِبُوا قُرْبَكُمْ واذكروا اسم الله، وغطوا آتيتكم واذكروا اسم الله» (٢) . كما يقول : « اتقوا الذر فإن فيه النسمة » والذر هو الغبار، والنسمة هي المرض، وقد ثبت حديثاً أن بعض الأمراض المعدية تنتقل بالرداذ عن طريق الجو المحمل بالغبار (أي الذر) ، وأن الميكروبات تتعلق بذرات الغبار عندما تحملها الرياح، فتصل بذلك من المريض إلى السليم عن طريق فمه وأنفه أو آنية طعامه وشرابه .

ب - ويحرص الإسلام على نظافة إناء الطعام والشراب قبل وضع الطعام فيه أو بعد استعماله . وإزالة لعاب الكلب لنجاسته يجب غسل الإناء سبع مرات، أو لاهما بالتراب لقول النبي ﷺ : «طهور إناء أحدكم إذا ولغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أو لاهن بالتراب» وحكمة الغسل بالتراب على ما يذكره الباحث الكبير الدكتور شوقي الفنجري (٣) ، أن العرب لم يعرفوا الصابون في ذلك الوقت، وكان التراب الوسيلة الوحيدة لإزالة بقايا الطعام من

كما اهتم الإسلام بنظافة ثوب المسلم وأناقته، وكان النبي ﷺ يستاء إذا رأى مسلماً لا ينظف ثوبه ويقول لأصحابه : « أما يجد هذا ما يغسل به ثوبه » (١) . والثوب الأنيق النظيف لا يعتبر كبرياء أو تعالياً في الإسلام، خاصة وأن النبي ﷺ يقول : «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال له رجل : «يا رسول الله .. إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً فهل هذا كبر» .. فقال الرسول ﷺ : «إن الله سبحانه وتعالى جميل يحب الجمال» وأخذ يذكرهم بقول الله تعالى : «يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ» [الأعراف : ٣١] .

ثانياً: نظافة الطعام والشراب :

نجد عناية بالغة من الإسلام فيما يتصل بنظافة الطعام والشراب تمثلت فيما يأتي :

أ - أمره كل مسلم أن يغطي إناء الطعام، وأن يسدد وعاء الماء ولا يتركه مكشوفاً للأتربة والذباب والميكروب، وهذا نجده في قول الرسول ﷺ :

(١) رواه أبو داود .

(٢) رواه البخاري ومسلم .

(٣) د. شوقي الفنجري : الطب الوقائي في الإسلام . ص ٢٦ ، ٢٧ استفدنا هذا التحليل الدقيق من بحث الدكتور الفنجري المتعمق في كتابه السابق .

دهن وظفر، وهي التي يختبئ فيها الميكروب، وبذلك يكون الصابون والماء مجزئاً في عصرنا عن هذا التراب.

ج - وعن نظافة الشراب: نهى الإسلام أن تتبادل الجماعة على إناء واحد.. أو أن يضعوا أفواههم على مصدر الشراب .. بل أن يشرب كل منهم في كأس خاص، وفي ذلك تقول السيدة عائشة رضي الله عنها: « نهى رسول الله أن يشرب في السقاء، لأن ذلك يئتنه ».

وعن أبي سعيد أن رسول الله نهى عن احتشاث الأسقية أن يشرب من أفواهها». وقد كان لرسول الله كأس خاص من الخشب يشرب فيه في البيت هو والسيدة عائشة.

ثالثاً: نظافة البيئة:

- نظافة مصادر المياه :

اهتم الإسلام بشدة على عدم تلويث مصادر المياه، فمنع إلقاء القذارة أو النجاسة فيها، كما حرم التبرز أو التبول في الماء، واعتبر ذلك مجلبة لعنة الله تعالى: «اتقوا الملاعن الثلاث : البراز في الموارد وفي الظل وفي طرق الناس».

ويقول النبي ﷺ أيضاً: «لا يبولن أحدكم في الماء الدائم ثم يتوضأ فيه فإن

عامة الوسواس منه» .

وعن ابن ماجه «أن النبي ﷺ نهى أن يبال في الماء الجاري» .

وعن جابر عن النبي ﷺ أنه نهى أن يبال في الماء الراكد .

وحكمة النهي عن التبول في الماء الراكد منه أو الجاري واضحة، وهي الوقاية من الأمراض التي تنتقل بواسطة تلوث المياه، مثل البلهارسيا والأنكلستوما.

ومعروف الآن أن الكثير من الأوبئة مثل الكوليرا والتيفود والتهاب الكبد المعدى قد تنتقل بالماء الذي تعيش فيه، كما أن البلهارسيا وطفيليات الانكلستوما تخرج مع البراز وتنتقل إلى جسم الإنسان السليم عبر الماء، ومن هنا يعتبر الإسلام أن الماء الذي يصيبه البول نجساً ولا يجوز الوضوء منه أو الاستحمام منه.

ومن الملاحظ أن أحاديث الرسول ﷺ تحذر دائماً من الماء الراكد والآسن، حيث ثبت أن كثيراً من الطفيليات والميكروبات لا تعيش في الماء الجاري.

- نظافة المساكن والشارع:

حث النبي ﷺ على نظافة البيوت، فقال: «إن الله طيب يحب الطيب،

جواد يحب الجود، كريم يحب الكرم، نظيف يحب النظافة، فنظفوا أفئيتكم ولا تشبهوا باليهود»^(١). ويحذرنا الرسول ﷺ في هذا الحديث من التشبه باليهود الذين كانوا يفرطون في إهمال تنظيف بيوتهم، لأن تراكم الأوساخ يعطى الحشرات والجراثيم مجالاً رحباً للازدهار والنمو، فضلاً عن انبعاث الروائح الكريهة التي تزكم الأنوف.

وقد جعل الإسلام نظافة المكان شرطاً مهماً عند اختيار الأرض التي تؤدي عليها الصلاة، ولا تصح صلاة المرء إذا لم يؤدها فوق تربة نظيفة من النجاسات بمختلف أنواعها.

كما بحث الرسول ﷺ المسلمين على نظافة الطريق، فيقول: «من سمي الله ورفع حجراً أو شجراً أو عظماً من طريق الناس مشى وقد زحزح نفسه من النار». وقوله: «أن تميط الأذى عن طريق الناس لك صدقة».

كما يذكر النبي ﷺ محذراً من يتبرز في الطريق، ومن غسل سخيمته على طريق المسلمين، بأن عليه لعنة الله

والملائكة والناس أجمعين.

ومن روائع الإسلام أنه حرم البصق على الأرض، وجعل ذلك خطيئة، ومن يفعلها تقلل من حسناته وثوابه. فعن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «البصق على الأرض في المسجد خطيئة، وكفارتها ردمها» والحكمة العلمية وراء ردم البصق أن تدفن في الأرض فلا ينقلها الريح، كما أن الميكروبات لا تعيش طويلاً في التراب الجاف^(٢).

وفي الحقيقة فإن تاريخ المحافظة والحماية للبيئة يرجع في أقل تقدير إلى ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد عندما شرعت حضارة أور UR (العراق اليوم) قوانين تضمن عدم اضمحلال الغابات من جراء الاستنزاف الجائر. وبالمثل أقر مجلس الشيوخ الروماني قبل نحو ألف سنة قانوناً يقضى بحفظ المياه خلال فترات الجفاف لتستخدم لاحقاً، ليس فقط لتوفير مياه الشرب. ولكن أيضاً لتنظيف الطرقات والمجاري^(٣).

وغنى عن القول التذكير بأن جذور المحافظة على البيئة مغروسة بثبات في

(١) رواد الترمذي.

(٢) د. شوقي الفنجرى: الطب الوقائي في الإسلام، ص ٣٠، ٣١.

(٣) أحمد بن حامد الغامدي: تاريخ البيئة من دهايز السياسة إلى أروقة الأدب، مجلة الفيصل العدد ٣١٦، الرياض ديسمبر، عام ٢٠٠٢م.

عن الطريق، والرفق بالحيوان ، وتنتهى بإقامة المناطق المحمية (الحرم في العرف الشرعي) .

لقد علم الإسلام أتباعه أنه إذا قامت القيامة وفي يد أحدنا فسيلة نخلة فليغرسها، وهي التى لن تثمر إلا بعد سنوات طويلة، وهذا الدين هو الوحيد الذى يكافئ معتنقيه الجنة إذا رفع أحدهم الشوك من الطريق، فما بالك بملوثات العصر الحاضر الأكثر ضرراً وفتكاً؟

تعاليم الأديان السماوية الربانية، بل حتى شعائر الأديان الأرضية أو الوضعية، كالبودية والهندوسية والكونفوشيسية التى ترشد أتباعها إلى حسن المحافظة على الطبيعة الأم. وقد رأينا كيف اكتملت تعاليم المحافظة على البيئة والاهتمام بها في الدين الإسلامي ، وقد سن لأتباعه شرائع تصب بشكل أو بآخر في مصلحة البيئة، وهي شرائع متعددة ومتنوعة تبدأ من إمطة الأذى

